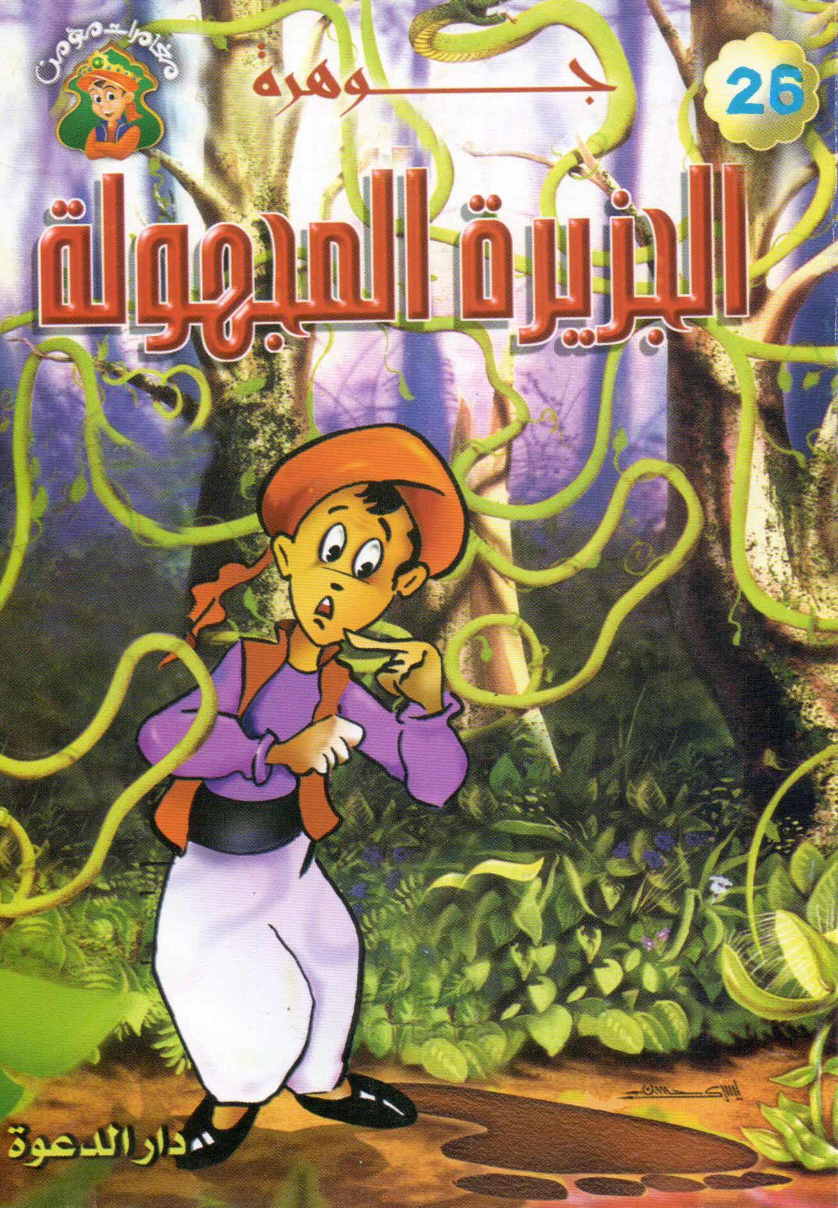

مغامرات مؤمن
26
جوهرة
الجزيرة المجهولة
دار الدعوة

# جوهرة
# الجزيرة المجهولة

ها أنا ذا مؤمن أتحدث اليك
عزيزى القارئ .. وقد وعدتك
من قبل أن أكمل لك مغامرة المحيط
المخيف .. عندما رأيت
كيف نجوت أنا وصديقى جون
الانجليزى و السيدة الطيبة
وابنتها خديجة من أهوال رحلة
بحرية كدنا نفقد فيها أرواحنا
حيث أوينا إلى جزيرة ثم
كان لنا فيها أحداث مغامرة
غريبة .. وسأحكى لك يا أخى
عن هذه الرحلة المثيرة فى هذه
الجزيرة المجهولة


دار الدعوة
للطبع و النشر و التوزيع



٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفاكس / 3901914 - 3907998





- سلسلة مليئة بالإثارة والتشويق
- أغـرب الرحـلات والمفارقـات
- تجمـع بين المتعـة والمعـرفـة
- لا غنى عنها في الرحلات والبيت والمواصلات

سلسلة

مغامرات عجيبة جداً ..

26

جوهرة

# الجزيرة المجهولة

الطبعة الثالثة

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع القانونى
٩٩/١١٦٧٦

الترقيم الدولى : 977-253-244-1



دار الـدعـوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٢ ش منشا ـ محرم بك ـ الاسكندرية
☎ ٣٩٠١٩١٤ ـ ٣٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس ٥٩٠١٦٩٥

## جوهرة

# الجزيرة المجهولة

تاليف / علاء الدين طعيمة

رسوم / يسري حسن

الإشراف العام / أحمد خالد شكري





## ٥

ها أنا ذا مؤمن أتحدث إليك عزيزى القارئ.. لقد وعدتك من قبل أن أكمل لك مغامرة المحيط المخيف.. عندما رأيت أنا وصديقي جون الانجليزى والذى أعلن إسلامه من قبل أهوال رحلة بحرية كدنا نفقد فيها الحياه وكيف أننا فى آخر الأمر صحبنا الله بعنايته فأنجانا نحن والسيدة الطيبة وابنتها خديجة إلى جزيرة ثم كان لنا فيها أحداث مغامرة غريبة وعجيبة، وها أنا الآن أجلس فى بيتنا بالقاهرة أشق أعواد الغاب لأمى حتى تجد ما تستعمله فى صناعتها وأحكى لك ياأخى عن هذه الرحلة المثيرة.

بعدما رسا بنا الحال على شاطىء الجزيرة واستطعنا أن نجد مأوى مؤقتا لنا.. واصطدنا بطة

٦

برية وشويناها وأحسسنا بالأمن على اليابسة..

شرعنا أنا وجون نبنى بيتا يأوى السيدة وطفلتها الرضيعة، ولكنها كانت على حق عندما طلبت منا أن نستطلع أمر هذه الجزيرة ونتعرف على مكامن الخطر لنتجنبها.. فتجادلت أنا وجون.

ـ اسمع يا مؤمن.. ليس من المروءة أن نذهب سويا ونتركهما ...

ـ نعم.

ـ إذاً فلتبق معهما ريثما أقوم أنا بالجولة الاستطلاعية

ـ لا.. أنا أدرى منك ياجون بهذه الحياه ـ كما أنك أقوى منى بدنا وأطول منى وأعرض.. وهذا مما سيضفى حماية عليكم ـ فلو رآك أحد هنا بصحبة

## ٧

السيدة وطفلتها لتردد قبل أن يؤذيكم.. في حين اذا رأني معهم لظن أنني أحد أطفالها و....

- مؤمن... أنا أخشى عليك من هذه الجولة.. أنا اذا ذهبت ولم أرجع ستتمكن من البحث عني.. أما إذا ذهبت أنت ولم ترجع.. فلن أفلح في البحث عنك

- ها ها ها... لا يا صاحبي.. لا تخش عليّ.. قبل أن يحل ظلام الليل ستجدني أمامكم بإذن الله.. قلبي مستأنس بالمكان يا جون كأنني أعرفه من قبل دعني

- والله معي ومعكم.

وبعدما أفلحت في إقناعه تأبطت القوس والسهام وتأكدت من سلامة السيف الذي أحمله وأخذت أسير قاطعا الطريق الرملي الناعم حتى إلتحم وغابة

٨

كبيرة تتدرج فى الإرتفاع إلى حيث لم تبلغه عيناى.. ولما بلغت الغابة حرصت على التمويه فأحضرت بعض الأغصان والنباتات ووضعتها فوق ظهرى ورأسى وسرت حثيثا كأننى شجرة، وتوقعت فى كل لحظة أن أقابل أى شىء فيه خطر على حياتى ولم يكن بالغابة غير طيور مختلفة الأشكال والألوان.. ولاحظت أثناء سيرى أن بعض الزواحف تجد لها مأوى آمنا... رأيت ثعابين صغيرة وأخرى تلتف حول الأغصان الضخمة.. كانت تربة الغابة ساحلية صفراء كأنها رمال الشاطىء الناعمة الرطبة.. لاحظت أن بعض الأرانب والفئران قد اتخذت لها بيوتا وأوكارا.. ونويت أن أصيد بعض الأرانب عندما

٩

تخذ طريق العودة ليفرح بها جون ورفيقاه.

كان الجو بارع الجمال والشمس ساطعة كقرص ذهب وتخترق أشعتها الذهبية الصافية سقف الغابة الهادئة من بين الأغصان المتشابكة و الأوراق المتعانقة. وكنت كلما سمعت صوتا اقبع فى مكانى واتكور لأرى.

بحثت كثيرا عن آثار آدمية فلم أجد.. وكانت الجزيرة كبيرة على أن أستطلعها كلها فى يوم وظللت مترددا أأعود لمركزى أم أبيت فى أى بقعة ثم أكمل مشوارى؟ كانت النجاه من أخطار المحيط والغرق باعثة فى جسدى نشاطاً كبيراً وفرحة العودة إلى اليابسة كانت تثير فى بدنى رغبة غير عادية

لاستكشاف كل شيء فيها. ومر النهار وأنا على تلك الحال.. أسير من غابة إلى أخرى عبر التلال الرملية الناعمة أحيانا أسير بحذاء الشاطىء وانتظر في الأفق عبر الماء اللانهائي عسى أن أرى سفينة تمر فتنقذنا .. ولكن فيما يبدوا أننا الوحيدون في هذا المكان كله من بني البشر.. وشعرت أن هذه الجزيرة لم تطأها قدم إنسان من قبل.. ولولا ما مر بنا من عواصف وأعاصير لأمكن على الأقل معرفة كنه هذه الجزيرة والى أى شعب تنتمي.. ولكنني لا أستطيع حتى الآن الا أن أطلق عليها إسم الجزيرة المجهولة.

ولما أحسست أن الوقت يمُر دونما جديد.. قطفت بعض ثمار الفاكهة التي كانت تعج بها أشجار الغابة



## ١٢

واتخذت طريق العودة متتبعا آثار أقدامى الواضحة ورغم أن الغروب قد منح الجزيرة بعض رزاز الماء الذى أخذ يغسل أوراق الشجر.. الا أنه لم يكف لمحو آثار أقدامي.. ولكنى تعبت إذ يعوقني ظلام الليل عن اتباع الأثار إلا بالجهد الجهيد ورغم ذلك أردت عازما العودة للرفاق قبل أن يهطل المطر ويمحو طريق العودة تماما. وتحول الطقس فى الليل إلى حال سيء وأخذت أجرى معتمدا على إحساسى بالمكان الذى مررت به من قبل وكُنت كلما جريت كأننى أجذب حبل دلو يسكب الماء من السماء.. وأخذ البرق يضرب ألسنة اللهب فيضيء الجزيرة كلها.. وصوت الرعد كأنه تكسير بلورة السماء المحكمة. ولما

## ١٢

اشتدت العاصفة احتميت بأيكة وارفة وأنا ألهث وأسعل سعالاً شديداً.. ورغم ذلك لم تكف الحالة السيئة للطقس عن معاندتي.. ولا أدرى لماذا كنت أشعر بالحنين للرفاق والخوف عليهم فى نفس الوقت.. وقررت أن أكمل المسيرة مهما جرى..

وعدت أقطع المفازات وأجرى حتى اقتربت من الشاطىء الذى تركتهم عنده.. وحمدت الله أننى لم أضل الطريق فهذه المعالم التى أقترب منها محفورة في ذاكرتي.. ولما أصبحت في الواجهة بحيث أرى جيداً ما أبحث عنه - رغم المطر الذى كان يهطل - أحسست بقلق شديد.. وأردت أن أكذب ظنونى وأنا أقترب وأقترب. وأن ظنى كان صحيحا.. فأنا لم أجد

١٤

لا «چون» ولا السيدة وطفلتها.. ونظرت حولى والمطر يغمرنى وجريت يميناً ويساراً وحاولت أن أجد تعليلا لما حدث وتوصلت إلى أنهم غادروا المكان بعيداً عن الشاطيء خوفاً من العاصفة ولاذوا بمكان آخر يحميهم من المطر.. نظرت على الرمال فلم أجد أى أثر يذكر.. فأين ذهبوا؟؟

تساءلت.. لماذا ألا أكون قد ضللت الطريق.. وإننى الآن فى مكان آخر غير الذى تركتهم فيه... وعدت أتقصى كل شيء حفرته فى ذاكرتى.. إن كل شيء مكانه، وتذكرت أن ثمة حطب كان مشتعلا لشي البطة يمكن أن يكون دليلا اذا عثرت على أثر منه فى مكانه.. فدُرت وراء تل رملى كنا قد وضعنا

خلفه الأعشاب الجافة لشي البطة وآلمني إذ أنني وجدته ـ وان كان المطر قد نال منه ـ في نفس المكان.. وعرفت أنني لم أضل الطريق فأين ذهبوا دون أن يدعوا في المكان شيئا يدلني عليهم. وأحسست أنني مجهول أيضا مثل الجزيرة التي أحيا عليها.. وشملني حزن غريب .. حزن الوحدة خاصة أن الطبيعة لم تتعاطف معي بل ظلت السماء تسكب فوقي ماءها وأنا أجرى وأسعى بين الرُّبى عسى أن ألمح لهم طيفاً.. وبعد إنقضاء الجهد وزوال النشاط وضعف الهمة ركنت إلى فجوة بجانب تل صنعته الرياح من قبل قابعا والماء يزحف نحوى حتى جعلني البرد والتعب أنام مكاني. ومضت تلك الليلة على

غير وعي مني، واستيقظت في الصباح أخلع ملابسي وأنشرها في أشعة الشمس الحامية وحملت قوسي وليس عليَّ إلا ما يستر عورتي.. وذهبت إلى الأرانب فاصطدت منهم واحداً.. وبعد أن سلخته بذلت مشقة شديدة لأشعل نارا ثم طعمت منه بحمد الله تعالى.. ورغم ذلك لم يتوقف عقلي برهة عن مجادلة إحتمالات اختفاء أصحابي.. هل عثروا على سفينة فأخذتهم دوني؟ هل نزحوا من المكان كله لخطرٍ حاق بهم؟.. هل عثر عليهم سكان من الجزيرة فأسروهم؟.. أم أن وحشاً خرافياً فتح فمه ثم ابتعلهم دفعة واحدة؟.. فلم يبق لهم أثر يذكر.

ومضت ثلاثة أيام بلياليها وأنا لاأصل إلى مكان



١٨

أصـحابى.. أين أنت يا جـون؟ وأين السـيدة الطيـبة وابنتها خديجة؟

وقـررت فى اليـوم الرابع أن أبحث عنهم فى كل شـبـر من الجـزيرة.. بأن ارتحل كل يوم من مكـان إلى آخر فـلا يقر لى مـعـسكر ولايثبت لى فـراش إلا وقد عثرت عليهم أو على مايخبرنى عن مكانهم.. كانت الجزيرة أكبـر مما كنت أظن.. تـشبـه الاسكندرية فـهى إلى حد كبير شريط طويل عريض.. ومع ذلك لاأرى له نهاية بعد.. وأشد ماكـان يحيرنى أننى لاأعثر على أى آثار لاقدام بنى البشـر .. وبعد مـرور أسبوع كـامل بينـمـا كنت أسـيـر قـرب غـابة أَلْمِلم الحـطب الجـاف توقـفت وأمـامى مـبـاشـرة أثـر قـدم آدمـيـة واحـدة..

فـادركت على الفـور أن هنـاك سكـان من البـشـر يعيشـون الآن . . ، فالأثر مازال حديثا ولم يخامرنى الظن أن يكون لجون أو السيدة التى كانت معنا . . بل هو لرجل أكبر جسماً من الانسان العادى . . وقد يكون عملاقاً لأن أثر القدم كبير . . لقد وضعت فيه السيف فاحتواه طولاً .

وسيطر علىَّ شعور منذ تلك اللحظة أن هناك من يراقبنى كما زاد اعتقادى بأن جون والسيدة وبنتها قد تعرضوا لمتاعب لاأدرى مانوعها . . ولم أنم تلك الليلة . . وأصبحت فى معاناة وتعب من قلة النوم . . وأدركت أن علىَّ صُنْع مكاناً يحميني من الخطر إذا جاء . . ، على الأقل حتى أنام نوماً . . آمنا . . ،

٢٠

فاخترت بقعة عالية اعتقدت أنها أعلى مكان في الجزيرة وشرعت أرفع إليها كل ما طالته يداى من أسباب البناء.

واستطعت أن أصنع كوخاً من الخشب وأحيطه بسياج متين.. ومضى أكثر من أسبوع لم أر فيه ما يثير انتباهى.. وفى كل يوم أخرج فى جولة استطلاعية أبغى فيها معرفة نهاية هذه الجزيرة أو العثور على أصدقائى إلا أننى أعود حاملاً صيداً أو بعض الثمار وأنام بالليل بعد أن أغلق بابى جيداً..، وذات يوم بينما كنت أتأهب للنوم.. إذ بزلزال يهز الكوخ كله.. وفى ضوء الشمعة الخافت رأيت أرضية الكوخ كلها تهتز كأنها زبد يطفو فوق موجة ثائرة..

٢١

أردت أن أقفز خارج الكوخ .. ولكننى رأيت الأرض تموج كبحر الرمال وأخذت جدران الكوخ تنخلع من السقف الذى سقط جانبه فى لحظة.. وفجأة ثُقبت الأرض ثقباً.. أخذ يبتلع الرمل من جانبه كأنه يشفط الدنيا شفطاً.. تراجعت أقف على الفراش .. التصق بالجدار جانبى والثقب يتسع وظننت أننى على فوهة بركان جائع .. وبرغم ما أكابده من رعب.. ظل عقلى يحلل الصور المتتابعة فى الخيال لأصحابى وهم قد قابلوا من قبل ثقبا مثل هذا فابتلعهم.. وأن الجزيرة مليئة بالمياه الجوفية التى تنفتح فوهات منافِسها فى أىّ مكان من سطح الجزيرة وفى أى لحظة.

٢٢

كل الأشياء أصبحت تهوى في الثقب الملعون..
كل ماحملته من متاع أو سلاح أو طعام أخذ يغيب
وهاهو الفراش أيضا ينحدر وينزلق بى فى سهولة
وسرعة فلم أجد غير السقف المتداعى فوثبت أتعلق
على عارضةٍ منه، وذهبت محتويات الكوخ كلها فى
لحظة ولم يصمد السقف كثيراً وأنا معلق فيه فارتج
رجة ثم هوى.. فلم أجد أمامي أى بد من الاستسلام
للمجهول الذى ينادينى من قاع الثقب المظلم فهويت
متوقعاً الموت فى آخر الأمر.

وكان الشعور بالسقوط مريراً.. كأن قلبى مازال
فى الكوخ بينما جسدى يفارقه لأسفل. أهوى
بسرعة فى بئر مظلمة مقطوعة الصوت كأننى أرحل

من عالم إلى آخر وأنتظر برعب اللحظة التى أصطدم فيها.. ولم أحلم يوماً أو أتمنى أمنية أعظم من أمنيتى أن أسقط فى ماء بدلاً من جوف صلب يحطمنى أو حار يذيب لحمى.

وشممّت أنفى رائحة الماء.. ماء البحر .. وقبل أن أظن.. كنت بالفعل أغوص بقوة اندفاع سقوطى فى الماء ثم دفعنى الماء بضغطة مرة ثانية لسطحه وكانت النجاة من الموت هذه المرة.. لاتعنى شيئاً .. بل اعتقدت أنها مجرد إرجاء للموت الذى انتوى أن يأخذنى ولكن ببطء.

نظرت لأعلى فأدركت استحالة التفكير فى الرجوع لأعلى.. كنت معلقاً على صفحة الماء

كالبعوضة والظلام الحالك يلفنى والماء الذى اسبح
فيه يخيفنى.. وأدركت ماكان عليه نبى الله ذي النون
يونس بن متى عليه السلام لما كان فى بطن الحوت .. أظنه
كان في مثل موقفي.. أنا تحت الأرض وفوق الماء
ولاأرى الماء ولا السماء .. إنها النهاية .. ولم أكن
اتوقع أبداً أن تكن نهايتى بهذا المكان وقبرى يكون
فى عمق المحيط البعيد.. وربى الذى لاإله غيره .
بكيت له وأنا أرى يدى لاتقويان على الحركة
وجسدى يكاد يتجمد من البرودة الثلجية القارصة..
أبكى إلى الله.. يا رب .. يا رب.. لاإله إلا أنت
سبحانك إنى كنت من الظالمين.. أبكى فلا اسمع إلا
صدى صوتى يجلجل مرتداً من الفوهة التى فيها



سقطت.. ومع ذلك فكنت مدركاً أننى لن أستسلم للموت بسهولة ولو أننى قد أموت من الفزع والرعب الشديد.

وفكرت إذا أنا صنعت مشواراً من الغوص فى الماء فقد أخرج إلى سطحه وأجد نفسي فى الهواء فأخذت نفساً عميقاً وتركت مكانى وشرعت أغوص للأمام.. أحسست أننى أسبح تحت الجزيرة.. وأدركت أن على قطع المسافة أطول من قدرتى على الاحتفاظ بالهواء فى صدرى حتى أصل إلى شاطئ الجزيرة وأخرج إلى سطح الماء.

عدت مرة أخرى إلى موقعى وكلما تهيأ لى أن الثقب الذى يستمد الهواء من أعلى التل الذى كنت

أقطنه يمكن أن ينهار فوقى فلا أجد غير الماء أتنفسه فاموت.. أستعيذ بالله وأبكى.

وأثناء ضربات ذراعى الخفيفة عثرت على كيس طعامى وسيفى يطفو فوقه.. فحمدت الله وأخرجت شيئاً أسد به جوعى وليشعرنى بأن هناك أمل فى الحياة وليعطينى طاقة تمدُّ فى مقاومتى اليائسة للموت المحقق.

وبعد ساعات من مناطحة اليأس والأمل أحسست أن النهار قد أتى فالنور أصبح يتسلل إلى الظلام فيزيحه قليلاً والأمر بات أوضح مما كان عليه وشيئاً فشيئاً رأيت قبرى واستطعت أن أغرس سيفى فى مكان صلب وأن استند عليه واريح ذراعى ورجلى..

وتمنيت لو وجدت مكاناً أريح عليه ظهرى ثم أنام لساعة واحدة.

ورأيت لما غصت للمرة الثانية أن الجزيرة كلها ماهى إلا بقعة رملية تطفو على الماء.. أو على الأقل تبدو كذلك من الناحية التى سقطت فيها .. لأن النور يغزو اسفلها من كل اتجاه وأرى أسفلها ولاشئ سواه.

ولم يكن لدىَّ غير الاستغاثة ولم يكن هناك من استغيث به إلا ربِّى.. ياحى ياقيوم برحمتك استغيث فأغِثْنِي.. كنت أدرى الناس بفائدة هذا الدعاء.. إنها عبارة استغاثة بالغة القوة وسريعة الإجابة.. فظللت علهيا حتى أتى فرج الله.. رأيت سمكة مثل الحوت

(درفيل) لها فم مبتسم دائماً وممدود للأمام.. رأيتها بعد أن غصت وخفت منها وكلما غصت راحت تلاعبني من بعيد فأحسست كأني مع كلب بحر لطيف.. اقتربت منها فاقتربت مني.. أحسست بالأمان وكأني وجدت رفيقاً يساعدني.. سبحان الله.. لله تعالى في كل أمة أهل خير كما في أمة البشر تماماً.. ولاأدري كيف نسيت حالي وورطتي الشديدة ورحت أغوص مع السمكة في الماء وأمسكها من زعنفتها الظهرية فتسحبني في دورة ثم تعيدني إلى مكاني مرة ثانية.

وأحسست أن الله أرسلها لي وأنني يمكن أن أعتمد عليها في خروجي.. فلما أتمت دورة مرة لم

٣٠.

أترك زعنفتها بل أشرت لها بالاندفاع للأمام مباشرة.. وأخذت شهيقا عميقا وأحكمت كلتا قبضتي على زعنفتها.. وكأني أمتطى صهوة جواد جموح.. انطلقت بي السمكة بسرعة عالية.. وأدركت صدق ظني لما رأيت أن الجزيرة كلها تطفو فوق الماء وتتدلى منها بعض جذور الأشجار وأن ليس بها صخرة واحدة.. وأحسست كم أن ذلك يمثل خطراً عليها.. كما تعجبت كيف تصمد حفنة كبيرة من الرمال أمام البحر كل هذه السنين التى تشكلت فيها الحياة فوقها.

اندفع بى الحوت الجميل ولم أصدق أننى أخرج معه من تحت الجزيرة فها هو يخرج بى إلى الحياة مرة

أخرى فوق سطح البحر .. بل ويجذبني للشاطئ وأراني أقف فوق اليابسة مرة أخرى.. أما السمكة التي أسدت لي ذلك المعروف فقد اتخذت لها طريقاً في البحر فلم أرها مرة أخرى..

ولم أعد أشعر بالفرحة بقدر ما أشعر بالخوف.. ذلك أن الموت يحدق بي دائماً كيف آمن على نفسي وأنام فوق رمل تحته ماء يُذيبَه ويُفَتِتَه بين الحين والآخر.

وأدركت أن أسلم شئ لي أن أصنع قارباً وأبحر بدلاً من أخطار الموت على الجزيرة، ولكن لما تذكرت الرفاق.. أدركت أنني المسئول عنهم وأنه لا ينبغي لي الهرب دون أن أعثر عليهم.. فحِرْتُ وضاق صدري

وأنا جالس على الشاطئ تداعب قدمى موجاته المتلاحقة.

كنت أحتاج للنوم فلم أدخر وسعاً فى ذلك.. بل نمت وقتا طويلاً وقمت من نومى على صيحات يطلقها الحوت وهو يقفز فى الماء فأدركت أن صديقى الجديد لم يقدر على بعدى عنه كل هذا الوقت.

كانت الجزيرة برغم الخوف جميلة، خاصة إذا كان الطقس بديعاً .. وهكذا قمت أصلى، ثم عرجت إلى الغابة فحصلت على ما يسد جوعى وأنا فى شوق لملاعبة الحوت الظريف.. وبعد أن فرغت له.. قفزت للماء وسبحت ناحيته أتمنى أن يأخذنى فى جولة حول الجزيرة حتى أعرف كل شئ عنها.. وحدث أن

## ٢٣

أمسكت بزعنفته القوية.. وصحبنى فى لعب جميل لم أكن أحلم به من قبل.. ولكن كل ما كان يهمنى هو أن أستطلع الجزيرة وأتعرف على شكلها، تارة يسحبنى والماء يغمرنى.. وتارة أخرى ينزل بى تحت الماء كأنه يرينى عجائب البحار وتارة أخرى يرتفع بى حتى ألتقط أنفاسى.. وفجأة وجدته يتجه صوب الشاطئ بسرعة عالية ولما ظننت أنه سيصدمنا بالرمال إذ به يغوص تحت الجزيرة مرة أخرى ولو أننى لاأملك الاعتراض فقد عرفت أن هذا الحوت الذكى يريد أن يطلعنى على أمر خطير يهدد الجزيرة .. كان تياراً مائيا سفليا يأكل فى جسم الجزيرة فيذيب رمالها شيئا فشيئا .. لقد وصلنا عنده ووجدت الماء

٣٤

في هذه البقعة .. متعكراً بفعل حركة الرمال التى تتآكل .. وطاف بى الحوت ليرينى أن ثمة خطر يحيق بالجزيرة ولم يَدُر بخلدى حينئذ ما الذى يمكن أن أفعله حيال ذلك.

إن مقاومة أفعال البشر ممكنة ولكن أن نقاوم الطبيعة القاسية فهذا ضرب من الخيال ولما شعر الحوت أننى بدأت أختنق لانعدام الهواء أسرع ينقلنى مرة أخرى إلى سطح الماء..ولكنه لم يتوقف بل ظل مندفعا إلى الجهة التى لم أصل إليها من قبل فى الجزيرة والتى شق علىّ أن أستكشفها وحدى.. واقترب بى ناحية الشاطئ ثم تركنى وقد أبلغنى رسالة الخطر.

## ٣٥

وتسـاءلت : لماذا لم يعيـدنى إلى مكانى الأول..
ولكن لم يدم سؤالى وحيرتى كثيرا فلما صعدت إلى
أول تل على الشاطئ رأيت آثار أقدام بشرية أكثر مما
كنت أتوقع.. فحمدت الله أننى لم أغادر سيفى لحظة
واحدة.. كان النهار فى أوله والطقس لطيف إلا من
بعض البرودة التى تستلزم سرعة تجفيف الجسم
والدفء. ولما شرعت أخلع سترتى إذ بى أشم أنفاساً
خلفى ولما حاولت أن استدير شعرت بشئ مدبب
ينغرس فى ظهرى وأدركت أن المتاعب قد بدأت وأن
نصل حربة يهددنى بالموت .. رفعت يدى لأعلى
فخف التهديد شيئاً فشيئاً فاستدرت له.. كان رجلاً
عملاقاً كما توقعت لا يرتدى سوى ما يستر عورته

ووجهه عليه بعض الألوان والرسوم الغريبة.. وبقدر خوفي من العملاق بقدر إحساسي بأن أصدقائي الآن على مقربة مني:

- ماذا تريد مني يا سيدي؟ .. أنا ما جئت معادياً..

- صه.. لا تتكلم .. هيا معي..

- إلى أين؟

- إلى رئيس الجزيرة .. إنه ينتظرك على أحر من النار.

- ينتظرني؟ أنا ؟!

- نعم .. ولقد رصد مكافأة لمن يعثر عليك.. أنت أرهقتنا كثيرا .. أي واحد من أهل الجزيرة يمكنه بسهولة أن يتتبع أرنبا برياً في جحره تحت الأرض.. أما أنت فقد اختفيت بعد أن كدنا نمسك

بك.. هيا يا ولد.. آه لو أعرف أين اختبأت منا..
هيا .

سرت أمامه نخترق غابة عالية حتى رأيت من على
بعد قرية تشبه تلك القرى التى كنت أقابلها فى
رحلاتى القديمة.. ولما أمعنت النظر لم أصدق عينى
عندما رأيت شيئا يشبه المئذنة..ولم أصدق ظنى أن
يكون الإسلام قد شمل هذا المكان المجهول بروحه
وتعاليمه.. وسألت الرجل وأنا على مشارف القرية
فقال :

ـ نعم إنه المسجد.. هل تعرف المسجد أيها الغريب
العجيب .

لم أرد عليه.. وذهبت معه إلى فناء كبير كأنه

ميدان القرية .. فحوله كانت البيوت الخشبية تقبع في هدوء.. والناس يتحركون لشئونهم وينظرون إلىّ من بعيد ويتعجبون ولم يجد هذا العملاق إلا سارية فربطني إليها وأخذ السيف منى ثم تركني وذهب وتذكرت الموقف ذاته من مغامراتي مع آكلي لحوم البشر عندما فعلوا بي ذلك وفي قبيلة الأفيال .. ولكن الأمر هنا يختلف، فالناس هنا يبدو عليهم الهدوء والورع وأن النساء يرتدين الزى الإسلامي .. فلم أر امرأة ولا فتاة إلا وقد وضعت فوق رأسها حجابا يستر شعرها وأحسست كم هو جميل أن ترى الإسلام في كل مكان.. ورغم ذلك تساءلت.. هل في هذا المكان يمكن أن أجد چون والسيدة وبنتها

## ٣٩

خديجة ؟

وبعد قليل حضرت فتاة طيبة.. وقدمت لى شرابا وأطعمتنى ثمرة جوز طيبة ثم غادرت دون أن تتكلم.. ولما جن الليل أحسست أن البرد سينال منى.. وقبل أن أصيح فيهم إذا بالعملاق يأتى ويحملنى تحت ذراعه ويدخلنى بيتاً من بيوتهم .. أدركت أنه سجن القرية.. وهناك حارس يقف على بابه.. ومضى علىّ فى هذا البيت ثلاثة أيام.. لقيت فيها ترحيباً وحذراً.. فأنا أجد الطعام والفراش .. ولكن حركتى محدودة ولم يكلمنى أحد.. وزادت حيرتى ومللت هذا الحال.. فلما طلبت من الحارس أن يخرجنى أو يحاكمنى فلم يمتثل..أخذت أنادى

وأصـرخ حـتى رأيت مـن النافـذة جـمـوع الناس تـلتف حول البيت .. وكنت أصيح.. أريد أن أخرج.. هناك أمر خطير يتهددكم وأنا أعرفه وبدلاً من أن يستمع أحد الناس ويجيب.. إذ بالباب ينفتح وأفاجأ بچون وهم يلقونه بجانبى فلم أفرح أكثر من هذه اللحظة:

ـ جون؟!! غير معقول !! الحمد لله .. الحمد لله.

ـ مؤمن ؟! يا إلهى .. كيف حالك؟

ـ الحـمد لله أننى رأيتك مرة ثانيـة يا چون.. ها .. ما حال السيدة وطفلتها؟

ـ لاأعـرف .. لقـد أسـرونا بعـد أن ذهبت تـسكـشف الجزيرة .. وذهبوا وراءك ليحضروك ولكنك فيما يبدو قد أتعبتهم.. مؤمن.. تصور.. إن أهل الجزيرة

كلهـم يدينون بـالإسـلام ولكـنهـم لا يصـدقـونـني..
قلت لـهم إنـنى مـسلم فـلمـا اختـبـرونى فى تعـاليم
الدين لم أعـرف وظنـوا أننـى أخدعـهم لولا أن أدليت
بالشـهادة والتوحـيد أمام رئيسـهـم.

ـ وماذا هم فاعلون بنا؟

ـ لا أعرف .. أعتقد أنهم يريدون أن يطمأنوا أن ليس
في الجزيرة أتباع لنا قد يؤذونهم .

ـ جـون .. هذه الجـزيرة فى خطـر .. ولابد أن ننبـه
هؤلاء النـاس إليـه.. الجـزيرة فى غـضـون شـهـر أو
شـهرين ستذهب سُدى.. وستذوب في ماء المحيط
مثل قطعة سكر في كوب شاي .

ـ ما هذا؟.. كيف عرفت؟

ـ لا .. هذه قصة أخرى يا جون .. لكنى متأكد مما أقول .

ـ على العموم .. هناك فرصة ستقابل فيها حاكم الجزيرة .. إنه رجل هادئ وقور .. طاعن فى السن سيسمع لك ولكنه حذر جداً ولا يطمئن لأحدٍ بسهولة .

ـ وقبل أن أسأل جون عن موعد ذلك اللقاء .. رأيت الباب ينفتح ويدخل العملاق الذى أسرنى وجذبنى من سترتى وقال متوعداً :

ـ أيها الغلام العجيب .. ألا من أتباع لكم ؟ .. يجب أن تعترف وإلا دققت عنقك .

ولما وجدنى غير آبه لما قال وتوعد .. حملنى مرة



أخرى وخرج بى وأغلق الباب دون جون ورحت أرى الناس وهم يشيعوننى بالنظرات فعرفت أننى فى الطريق إلى بيت الزعيم.

ودخل حارس يخبر بقدومنا.. ثم عاد يخبرنا أن الرئيس متجهز لنا.. فأنزلنى العملاق لأسير على قدمى ودفع الحربة فى ظهرى وفتح الحارس الباب فدخلنا.. وما إن رأيت الرئيس على كرسيه فى آخر الإيوان حتى أصابتنى الدهشة وشلّتنى المفاجأة.. وتجمعت خيوط الذاكرة فى رأسى مرة أخرى وحاولت أن أتذكر أين رأيت هذا الوجه من قبل ولم أغب فى محاولتى كثيرا لأننى عرفته.. وبدلاً من أن ألقى عليه السلام.. جريت نحوه وأنا أصيح به:

٤٥

ـ سيدى التاجر العجوز.. هل تتذكرنى؟

وقف الرجل عن مقعده وحملق فىَّ وكان العملاق فوق رأسى يمسكنى من عنقى فى حين أن تذكرنى الرجل كما توقعت.. فتورد وجهه الأبيض بالدم وابتسم ضاحكاً:

ـ مؤمن.. أنت.. أنت مؤمن.. يا إلهى.. يا سبحان الله.. يا سبحان الله.

وتركنى العملاق لما رأى من الوئام والصداقة.. وجريت ألقى بنفسى فى أحضان الرجل الطيب وأصابنى البكاء كما أصابه أيضاً..

« ولعل القارئ العزيز يتذكر مغامرة البحر السابع لما أنقذت التاجر العجوز من القراصنة ثم أنقذتهم من

الغرق ودعوتهم إلى الاسلام فأسلموا وبحرت بهم في سفينتي إلى جزيرة ثم تركتهم ليعمروها».. ها هي الأيام قد دارت وبعد عشرات المغامرات يقذف بي القدر إلى ذات الجزيرة حتى يجمعني بأصحابي القدامى.. ونظر إليّ الرجل بعينين تملأهما الدموع وقال:

ـ مؤمن.. هل تذكر اسمي يا مؤمن؟

ـ على الفور صِحْت كأني أغوص في الماضي لأسترجعه:

ـ الشيخ ضرغام.. أنت الشيخ ضرغام.. أليس كذلك؟

ـ ها ها ها .. حبيبي يا مؤمن.. ها .. هل أوصلت

كتاب الله إلى ملك البحر السابع.

- ياه يا شيخ ضرغام .. ألا زلت تذكر هذه المغامرة؟

- يا مؤمن يا ولدى.. لقد حقق الله أمنيتى .. كم كنت أتوق لرؤيتك مرة أخرى حتى تحكى لى كيف أعطيت الكتاب الذى أعطاه لك الجنيان شولم وشلشون لملك البحر السابع.

- سأقص عليك كل شئ يا شيخ ضرغام..

كانت المفاجأة تثيرنى وأنا أرى بعينى ثمرة المعروف الذى أديته بفضل الله فى قراصنة لم يكن لهم عمل إلا قطع الطريق وسفك الدماء وإشاعة الخوف فى البحار.. ها هى قرية باكملها تدين بالإسلام وتحيا بتعاليمه السمحة..حمدت الله أن

أحيانى حتى أرى ثمرة جهدى وبعد الترحيب وكرم الضيافة .. طلبت منه أن يفرج عن جون .. وعلمت أن السيدة وبنتها في حريمه معززة مكرمة. وقضينا ليلة ممتعة لم أشأ أن أعكرها بالحديث عن الخطر الذى يتهدد الجزيرة.. ولم يصدق جون نفسه وكانت فرصة النجاة كافية لتنسيه كل شئ عن الجزيرة.

وفى الصباح جمع الشيخ ضرغام رجال القبائل التى تسكن القرية .. فرأيت وجوههم وتعرفت على أكثرهم.. وقال فيهم:

ـ انظروا أيها الرجال إلى هذا الغلام الشجاع.. هل فيكم من يذكره؟

حملقوا قليلا ثم صاحوا يرددون اسمى ولا أخبرك

يا صديقى عن مقدار الحفاوة التى قابلوا بها منقذهم ومعلمهم القديم. ولما أرادوا أن يقيموا لى احتفالاً يليق بى.. رفعت يدى فسكتوا وقلت:

ـ الوقت ليس وقت الاحتفال.. يبدو أن الله أرسلنى إليكم لأودى نفس مهمتى.. كما تركتكم هنا منذ سنوات.. أعود لآخذكم من هنا الآن.

وهنا بدا الغضب على وجوههم ولكن جون ابتدرهم قائلا:

ـ الجزيرة فى خطر يا إخوان.. أنتم تسكنون بيوتا قديمة ولكن الأرض التى تحملها تذوب مع ماء البحر يوماً بعد يوم ولابد من عمل شئ لمواجهة ذلك.

٥٠

تصاعدت همهمات الرجال وزاد اللغط وارتفعت الأيدى والأصوات فأشار الشيخ ضرغام لهم بالصمت وقال:

- اسمعوا يا رجال.. كلام الغلام الذى ندين له بحياتنا وديننا لابد أن يحترم.. وبدلاً من الغضب نجلس الآن ونعرف منه القصة كلها ونتدارس الأمر فيما بيننا بهدوء ورزانة.

وكانت جلسة شاقة.. قضينا فيها طول النهار وجزء من الليل شرحت لهم ماذا رأيت فى الجزيرة منذ حضرت إليها.. وذهب رجال إلى الشاطئ وغاصوا فى الماء وعادوا يؤكدون كلامى.. وبالليل اتفقنا جميعا على صنع سفينة كبيرة تقلنا فى البحر

إلى مكان آخر.

ومضى علينا فى الجزيرة أكثر من أسبوعين.. وقد أعلن الشيخ ضرغام حالة الطوارئ العامة لمواجهة الكارثة المحتملة.. ورغم ما كان يبدو أن الجميع نشطون فى العمل على صُنع السفينة إلا أن الوجوه لم تفلح فى إخفاء مشاعر الحزن العميق بسبب توقع الهجرة من الوطن الذى عاشوا فيه ولهم فيه ذكريات وأحلام وآمال كثيرة سوف يعدمها الرحيل.. ولكم تمنيت من داخلى أن أجد حلاً يجعل هؤلاء القوم يحيون فى الجزيرة للأبد.. ولكن أنى لى بذلك.. عجز عقلى وباءت أحلامى بالفشل ولكن لم أفقد الأمل فى قدرة الله عزوجل.. ولما لجأت إلى الله

بالدعاء وجدتنى أتساءل : «هذه الجزيرة ظلت طوال السنين الماضية تحمل الناس والحيوانات وتنمو فوقها الغابات الوارفة.. فما الذى أبقاها كل هذه السنين؟.. ثم ما الذى جعلها تتداعى لتذوب فى الماء ويرحل كل من عليها إلى وطن آخر؟ هل هناك سبب منطقى؟»

وهكذا بت كل يوم أقطع الوقت بالليل أفكر فى حلول للأزمة مع أننى فى النهار أعاون الناس فى صنع السفينة.

لقد صمم نجار القبيلة سفينة عملاقة.. ذكرتنى بالسفينة التى بناها نبى الله نوح عليه السلام. وحدد لبنائها كمية غير مسبوقة من خشب الشجر وكان يستلزم

لجمعها عدداً كبيراً من الرجال يحملون البلطة والمنشار وآخرين يعملون في نقل الخشب من الغابات إلى أقرب مكان على شاطئ البحر ، ولما حاولت أن أقنع الشيخ ضرغام بأن من الخطورة بمكان صنع سفينة واحدة تحمل هذه الأعداد الغفيرة من البشر والحيوان .. اذ علينا صنع عدة مراكب حتى إذا تعرضنا لخطر من عاصفة أو إعصار لأمكن تقليل الخسائر ولكن النجار أجزم أن ذلك سوف يستغرق زمنا أطول ويحتاج ذلك إلى جهد أكبر .. وهكذا فلم أر في حياتي مثلما رأيت من هذه الهمة العالية وكلما غاص الرجال أسفل الجزيرة عادوا يحملون لنا خوفاً شديداً فيحثون الناس على سرعة الانتهاء من السفينة

العملاقة.. ولكن مع زيادة التعب والجهد بدت احتمالات الانتهاء والنجاة بالإبحار تبتعد.. إذ أن جسم السفينة يحتاج إلى أخشاب مقوسة ومسامير حديدية لاحصر لها.. فكان الحداد لاينام.. وكانت النساء تحملن الغذاء إلى الرجال الذين كانوا يتساقطون من الإعياء. وذات مساء جلست إلى الشيخ ضرغام:

ـ ماذا تظن يامؤمن؟.. هل سنلحق بالنجاة أم سنجد أنفسنا فى قاع البحر؟

ـ أحسن الظن بالله ياشيخ ضرغام..

وقبل أن أكمل كلامى دخل حارسان بينهما رجل يقف ذليلاً وكان الشيخ ضرغام مجهداً فنهره:

ـ ماذا فعلت أيها الشقى؟

لم يرد الرجل وتكلم أحد الحارسين فقال:

ـ ضبطناه يا سيدى الرئيس وهو يسرق جوال أرز مما أعددناه للسفر بالسفينة.. لقد اتعبنا وجرينا وراءه وهو يحمل الجوال وتمكنا من القبض عليه متلبساً.

ومضى الشيخ ضرغام ساعة يحقق مع اللص وأحضر شهوداً رأوه وهو يفر بالغنيمة وأثبت عليه التهمة.. ولم يشركنى فى محاكمة الرجل ثم عقد جلسة محاكمة بالرجال المجهدين وفى منتصف الليل أصدر حكما بحبس الرجل حتى يحين موعد رحيل السفينة.. ولم أشأ أن أتدخل فيما لم يشركونى فيه ولكن عقلى رفض كل ماحدث وانتظرت حتى

انصرف الجميع وشعرت أن الشيخ ضرغام يريد أن ينام.. فاستأذنت فى الانصراف وقام يودعنى إلى الباب فنظرت له نظرة عتاب وهمست فى أذنه:

« ألم تفكر يا شيخ ضرغام فى السبب الذى يزيل الله الأرض من تحت أرجلكم؟»

وأظن أن جملتى هذه جعلته يفكر طوال الليل ولم يذق طعم النوم.. وفى الصباح الباكر وجدت حارساً يوقظنى لأن رئيس القرية يطلب مقابلتى فى أمر عاجل.. فآثرت أن أصحب جون معى.. وذهبنا إلى الشيخ ضرغام فوجدته أكثر إجهاداً ولم يمهلنى الجلوس بل سألنى:

ـ مؤمن.. ماذا كنت تقصد بما قلته لى بالأمس؟

- سيدى الفاضل.. لقد فكرت كثيراً .. لماذا تتقوض الجزيرة وقد جعل الله فيها كل هذه الخيرات.. لابد أن هناك أسباباً لذلك.. سألتك أن تفكر فيها هذا كل ما فى الأمر.

- لا يا مؤمن .. اسمع .. أنا لم أنم طوال الليل.. أفكر فى كلامك.

- وإلى أى شئ اهتديت ؟

- آه .. إنما اهتديت فعلاً بكلامك .. ويبدو أنه حدث بعد فوات الأوان.

- لقد فهمت قصدي .. ؟!

- نعم يا ولدى.. نعم.

كان جون ينظر بيننا فى حيرة لايفهم مانتكلم

عنه.. فلما زادت به الحيرة صاح سائلاً:

ـ أنا لا أفهم.. أرجوكم.

قال الشيخ ضرغام:

ـ إن الذى يفرط فى أمر الله ياجون يستحق أكثر من ذلك.. بالأمس حكمت على لص سارق بالسجن.. وأظن أن هذا الحكم لم يعجب مؤمن .. وهو على حق.. ولكن التفريط لم يكن بالأمس يا بنى.. وإنما كان منذ أعوام عندما سرق ولدى حربة لرجل من أهل القرية.. وكان لابد لى أن أحكم عليه فيما أجرم.. ورق قلبى لولدى الذى لا أعرف مكانه الآن.. فحكمت عليه بالسجن ستة أشهر.. وهرب ولدى فلما تكررت حادثة السرقة مرة أخرى لم

استطع أن أحكم على فاعلها إلا بالسجن.

ونظرت لجون الذى كان ما زال فى حيرة وقال:

- وماذا فى ذلك؟

- يا ولدى - لقد هدى الله هؤلاء الناس إلى الاسلام والإيمان.. وكنت ومازلت أنا رئيسهم وإمامهم أمام الله.. كان لابد لى أن أطبق شرع الله كما أتى به الكتاب وسنة النبى محمد ﷺ.

- سيدى.. هل هناك عقاب آخر للسارق غير السجن عندكم؟

- شرعنا يأمرنا يا ولدى بأن نقطع يد السارق حتى لا يسرق مرة أخرى وحتى يرتدع كل من يفكر فى ارتكاب هذه الجريمة.

وهنا رأيت أن أوضح الأمر اكثر لجون ولكنه ثار وقال:

ـ ماذا؟.. أتقطع يد انسان لمجرد السرقة؟.. عذراً أنا لا أعرف تعاليم الإسلام ولو أننى بحمد الله قد أسلمت من قبل.. لكن هذه قسوة.

قلت له وأنا أدرك أن الدين النصيحة

ـ يا چون يا أخى.. ديننا أتى من السماء من الخالق الذى يطلع على قلوبنا ويعرف طبائع البشر.. وهو الذى علم من قبل أن التهاون فى الجرائم يؤدى إلى فساد كبير.. لذا جعل الحد قاسياً حتى تخف حدة الجريمة وتنعدم.. أرأيت لو أن الشيخ ضرغام طبَّق ذلك على ولده.. أكان هناك من يسرق زاد الرحلة

الشاقة التى نستعد لها الآن ؟

سكت جون وبكى الشيخ ضرغام فأردت أن أخرجه من بكائه فسألته :

ـ ولكن يا شيخ . .لم تقل لنا لماذا اختفى ولدك . . وأين تظنه الآن ؟

أخذ الشيخ يبكى ويقول :

ـ كيف نسيت ؟ . . كيف نسيت أمر الله ؟ . . كيف تغافلت الآية التى سيسألنى عنها يوم القيامة ؟

اقترب منى جون وسألنى هامساً عن الآية فقلت له :

ـ قال تعالى فى سورة المائدة ﴿ السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ .

وهنا هاج الشيخ ضرغام وزاد نحيبه وقال:

ـ ليس هذا فحسب يا مؤمن.. لقد تذكرت يا ولدى.. أيقظت فى ضميرى ما أخذت أدفنه كل ما مضى من عمرى.. لا .. لن أنسى حديثا قال فيه رسول الله ﷺ «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

ـ حاولت أن أهدئ من روعه وأخبرته أن الله غفور رحيم وأنه ينتظر توبته وأن يعمل على إصلاح ما فات فثار فى وجهى.

-إصلاح.. أى إصلاح .. لقد أتيت للجزيرة مؤخراً يا مؤمن.. جئت وانشغل الناس بالكارثة فلم تقف على ما نحن فيه.. إن تهاونى فى ولدى جعل السرقة تنتشر ولم يخش أحد الناس أن يفعلها.. والأشد من ذلك .. انتشرت الرشوة فى جزيرتنا يا مؤمن.. وتهاونت فيها.. نعم يا ولدى.. نعم.. إن الذى حل بجزيرتنا من الخراب المنتظر.. من جراء ما كسبت أيدينا من فساد فى البر والبحر.

ـ سيدى الشيخ ضرغام.. لم تجب على سؤالى.. أين ابنك الآن ؟

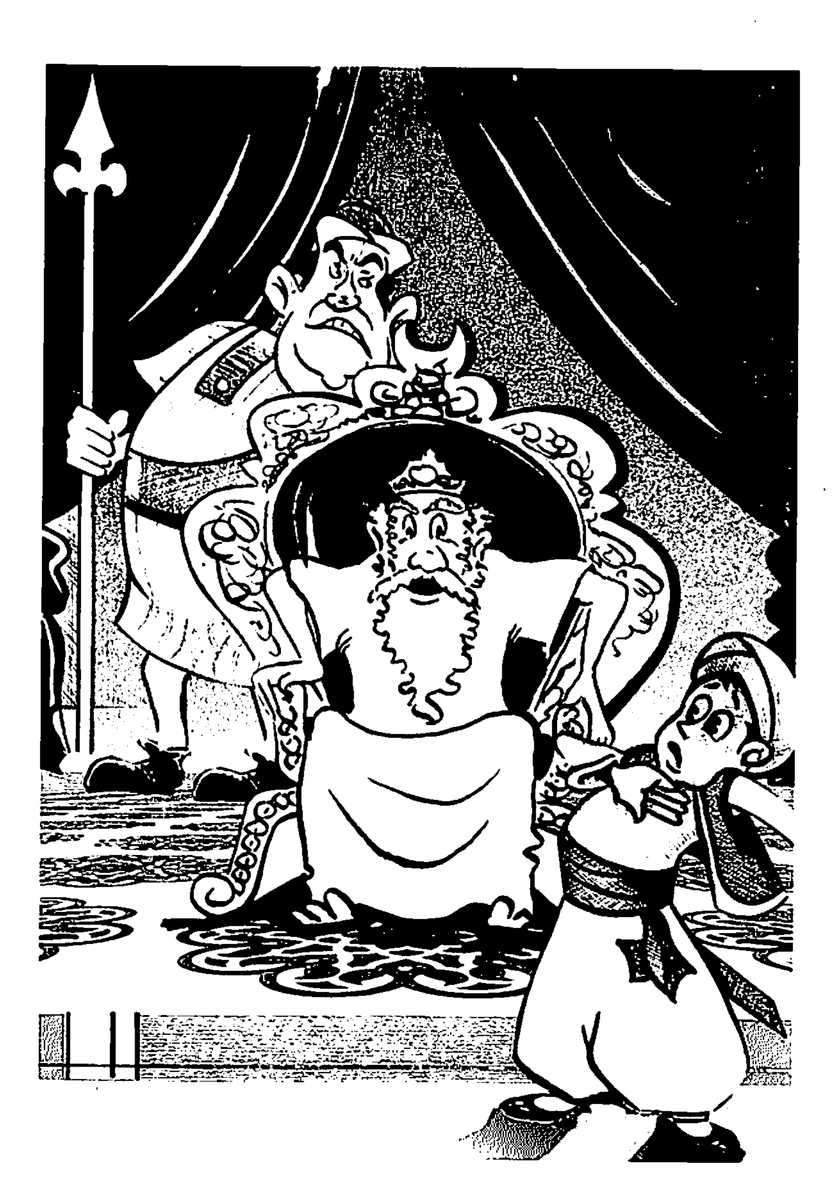
ـ قرصان .. ولدى أصبح قرصاناً يا مؤمن.. ليتنى قطعت يده على أن أراه يوماً يسرق.الناس ويقطع

الطريق.. لقد قدم رشوة للحارس ففتح له باب السجن واصطحب بعض أشقياء الجزيرة وسكنوا في الجهة الأخرى من الجزيرة وصنعوا سفينة شراعية يقطعون الطريق في البحر.. وإذا شحت السفن أغاروا علينا.. أغار ولدى عليّ يا مؤمن ونهب زرعنا وخطف نساءنا.

ـ وماذا فعلت معه؟.. هل أخرجت سرية من رجالك يحاربوه؟

وكأن كلامي كالسيوف تمزق لحمه فأخذ يبكي ويبكي.. وقال وهو يكاد يغرق في دموعه:

ـ إنه ابني يا مؤمن.. إبني.. كيف أحاربه؟.. كيف أرسل من يقتله؟.. ابني ابني ابني



وقبل أن أكمل حديثى معه إذا برجل يأتى مهرولاً وهو مكفهر الوجه يتصبب عرقاً ويلهث:

- سيدى الرئيس.. هناك شئ غريب.

هرعنا معه إلى حيث كانت فرقة من أهل القرية يقفون حول بئر واسعة لم تكن موجودة من قبل وكانوا ينظرون إليها والخوف يملأ قلوبهم وأعينهم وقبل أن أسأل كانوا يتحدثون أن هذه البقعة قد غارت منذ قليل وبلعها قاع البحر فى لحظة.. وأكد البعض أن كانت تحمل ثلاث شجرات موز ناضجة. ووقفنا جميعاً والخوف يحوم بيننا وتوقع كل واحد فينا أن يهوى بين لحظة وأخرى وأن يزول موضع قدميه .. ولكن كنت أكثرهم خوفاً لأننى جربت من قبل هذا

الشعور.

وعـاد الناس يجـرون إلى بيـوتهم واصـبح الرجل يربط نفسـه بحبل هو وزوجته وأولاده.. بل كانت هناك جماعات تربط نفسها بالأحبال.. وامتنعوا عن بناء السفينة خوفاً من الموت .

ومـرت الأيام والخطر يقتـرب.. ولم يكن غيـر النجـار وبعض الرجـال الشجعـان الذين يمـارسـون العـمل فى السـفينة.. وذات ليلة سـمعنا صـراخاً وعويلاً فجـريت أنا وجون.. وتبعنا الشـيخ ضرغام ونحن نتـوقع حـدوث فـجـوة أخـرى ابتلعت أحـد الناس.. ولكن الأصـوات كانت تأتى من ناحية ورشة العمل فى السفينة.. فجرينا نحوها والبرد يستقبلنا

بقسوة وعرفنا بعد ذلك أن ابن ضرغام قد أغار على النجار وأصحابه واوسعهم قتلاً ثم نهب كل ماجهزوه لبناء السفينة من دعائم ومسامير وأحبال مجدولة :

ـ والآن يا شيخ ضرغام.. هل ننتظر حتى يعيث ولدك فساداً في الأرض؟

صمت الشيخ برهة واغرورقت عيناه بالدمع ثم قال بصوت مخنوق :

ـ كفى يا مؤمن.. كفى .. وكفى يا ضرغام حناناً على ولدٍ عاق.. من أكون حتى يتسبب ابنى فى الدمار ثم لا أحاسبه؟

وفى هذا اليوم بالذات وصل الخطر إلى ذروته.. فكنا نقف ونرى التلال العالية تختفى فى لحظة..

وحدث أن سقط بيت حمدنا الله أن لم يكن به أحد من أصحابه.. وانتشر الذعر بين الناس فلم يعرف أحد أين يفر من الخطر الذى ينتظره من تحت قدميه.

وحدث أن طلبت أم خديجة أن ترانى.. فاستدعاها لى الشيخ ضرغام فوجدتها تحتضن خديجة الصغيرة والخوف جعل الشحوب يختطف الدماء من وجهها:

ـ مؤمن.. افعل أى شئ من أجلى أنا وابنتى .. أصنع قارباً صغيراً ولنهرب من هذا المكان المخيف.

ذهبت مرة أخرى أنا وجون إلى الشيخ ضرغام ووجدناه متردداً فى عزمه فلم أحاول معه مرة أخرى.. بل خرجت مع جون وصعدت تلا عالياً

وأخذت أصيح فى الناس فكانوا يقتربون كأنهم أسرى فى أغلالهم يرفلون :

ـ اسمعوا أيها الناس.. إن موقفكم السلبى تجاه الخطر سيدمركم ويدمرنا جميعاً .. الوقت يجرى والخطر يقترب..

فقال رجل :

ـ ماذا بعد أن سرق اللص تجهيزات السفينة.. ما العمل.. ليس لدينا إلا أخشاب مسندة.

فقال جون بحماس شديد :

ـ ألستم رجالاً .. هيا اخرجوا من أغلالكم واستعيدوا ما سُرِق منكم وبدلاً من أن يردوا عليه اتجهت أنظارهم إلى الشيخ ضرغام ولسان حالهم يقول..

هل نحارب ابن زعيمنا ؟

فبادرتهم :

ـ الشيخ ضرغام سيبيعكم ويبيع نفسه لينجو ولده وعصابته.. أيها الناس من كان منكم يتبع الشيخ ضرغام فليذهب ويجلس بجانبه ومن كان يتبع الله ورسوله فليأتِ إلى جهاد الفاسد وإعادة الأمان للجزيرة.

ولأول مرة أعرف كم أصبح الإيمان فى قلب الإنجليزى جون.. ورغم الخطر إلا أننى فرحت به كثيراً لما قال للناس :

ـ أحسنوا الظن بالله وانصروه ينصركم .. انصروا الله ينصركم يا رفاق.. وأنا على يقين أننا لو ضربنا

على يد الفاسد بيننا مهما كان مركزه ومقامه لرفع الله عنا العقاب، أيها الناس.. إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. من أعمالكم سلط عليكم.. لا.. لا للفساد.. هيا.. هيا.. نُنَقِّى الجزيرة ونُقِيم فيها شرع الله..

وهنا سأل سائل يتحدى:

ـ وهل تظن أن ذلك سيعيد للجزيرة قوتها فنطمئن للعيش فوقها ؟

ولم يتردد جون بل أجاب بشكل لم أتوقعه :

ـ اسمعوا.. أنا أضمن لكم ذلك.. ولو لم يحدث سأكون أول من يلقى بنفسه في حفرة.

وهنا نظر الناس بعضهم إلى بعض ورأيت في

أعينهم رغبة فى تصديق جون.. لا أعرف .. أهو الإيمان؟.. أم أنه الأمل الأخير؟.. أم أن جون قد ألقى كلماته بصورة تنفى الشك أو أنهم ظنوه من يطلع على الغيب؟.. لا أدرى.. لكن صياح الناس كزئير الأسود الغاضبة قطع تفكيرى ورأيت نفسى قائداً أنظم الخطوط وأعقد مؤتمر الحرب وأجهز السرايا للهجوم الكبير.. أما الشيخ ضرغام فقد اعتزل فى بيته.. فلم يطاوعه قلبه أن يشترك معنا فى شئ.. شعرت به واحترمت شعوره.. ولكن فى مغامراتى السابقة تعلمت أن العمل من أجل الجماعة لا يعرف العاطفة.. بل يحتاج إلى العقل الواعى الذى يُرَجِّح كَفَّة المصلحة العامة عن العاطفة الفردية.. ولم

يمض يومـان إلا والجـيش جـاهز للحـرب.. ودقت الطبول ورفعت رايات الجيش وأعطيت الأمر لصاحب البوق للتحرك.. ومضينا فى السير يوماً نهاره أما الليل فـربضنا على مـقـربة من مـوقع الأعـداء.. وأرسلت ثلاثة نفر يستطلعون أحوال العدو ريثما أحدد وقت أول ضوء للفجر ليكون ميعاد الهجوم.. وعاد المستطلعون يخبروننا بأن العدو متجهز لنا.. وأدركت أن الشيخ ضرغام قد أرسل من يحذر ولده منا.. وفى أوقات الحرب تكون القرارات قاطعة لارجعة فيها.. فاعتبرت الشيخ ضرغام خائنا للجماعة وأن عليَّ إصدار قرار بفرض الحراسة على بيته وتحديد حركته بوضعه في حراسة مشددة..

فأرسلت مجموعة منا لتعود إلى القرية واخبرتهم بما يجب أن يفعلوه.. وبالليل جلست أنا ومجموعة الاستطلاع وجون وقادة الجيش نرتب خطة الهجوم.. وبعد العناء والجهد انصرف الجميع ورغم أننى نصحت القادة بالنوم للراحة واستعادة النشاط إلا أننى كنت متأكداً أن أحداً لن يذوق طعم الراحة حتى نكسب الحرب .. وكان جون شارداً:

ـ صديقي جون.. فيم شرودك ياأخي؟

ـ وعدت الناس بما لايملكه إلا الله.. وعدتهم بما ليس في يدى.

أدركت أن جون لايعرف كيف يفي بوعده.. يريد أن يلتزم أمامهم بكلمته ويخشى أن يخذله الله بعد

نصيحته:

ـ أتخشى خذلان الله يا جون؟

ـ صدقني يا مؤمن.. لا أخشى أن يصدقني الناس أو يكذبونني.. إنما أريد أن يروا نصر الله لهم بعد أن نصروه ونصروا دينه.

ـ اسمع ياچون.. إن الله الذى نؤمن به.. نؤمن أيضا أنه مطلع علينا فى حوارنا الآن ورآك وأنت تقسم به وهو لا يخذل عبداً رفع شأن الدين ودافع عن الله.. ولكن كلما استبد بك الشيطان يا جون فعليك بالدعاء.. الدعاء .. الدعاء المهم أن تكون موقناً بالإجابة.

ـ ها ها ها .. أنا بعد الذى رأيته معك فى الصحراء

الكبـــرى.. لا يمكن أن أسئ الظن بالله أبداً يا مؤمن.. سأدعو الله.. وأنا على يقين من إجابته للدعاء.

وغفل بعد ذلك جفنى قليلاً فنمت ساعات قبلها وبعدها كان جون يتضرع إلى الله أن ينجى الجزيرة وينقيها من الفساد.

وقبيل الفجر بلحظات ذهبت على جواد إلى ربوة عالية ورأيت بنفسى مكان الأعداء.. كانوا اكثر مما أتوقع.. ورغم ذلك فلم تكن لدى قائدهم القدرة المحنكة فى الدفاع .. لقد تعود أن يهجم ويهرب.. والآن هو فى موضع الدفاع لأول مرة.. لذا فكان من أهم نقاط الضعف أن معسكرهم على الشاطئ، لذا

٧٨

كان البحر خلفهم وهو يعلم أن الهجوم سيأتى عليه من الداخل.. لم يفكر إذا ما إن احتاج للتقهقر أنه سوف يلقي بجنوده في الماء.. وكان على استغلال هذا الركن الهام فى الخطة.. وهو أن أدفعه للسقوط في البحر.. وأدركت أن عليٌ عمل كماشة ثلاثية الأضلاع.. وبالفعل قسمت الجيش إلى ثلاثة أجزاء القلب والميمنة والميسرة.. كان الرجال يخشون الحرب.. فهم لم يحاربوا من قبل.. ورأيت فى عينى جون ـ اللتين حرقهما السهر والتضرع إلى الله بالنصر والنجاة ـ خوفاً من الهزيمة فصرخت فى الرجال وذكرتهم بأن الجنة تنتظر الشهداء.. وكان الهدف الحيوى فى هجومنا هو استعادة تجهيزات

السـفـينة بأى شكل.. ولما صـرخنا واندفـعنا نحـو مـعـسكـر الأعـداء إذ بنار عظيـمـة تندلع فى كـردون ضـربوه حـول المعـسكـر ليـمنعـونا من التـقـدم.. بل توقفنا عن الهجوم وتراجعنا عن الصهد الملتهب.

ليس هذا فـحـسب.. بل أن سـهاماً أخـذت تتوالى علينا مـن مـعـسكـر الأعـداء فأمـرتهم بالتقـهـقـر حتى نرى مـاسنفـعلـه فى النيـران التى تحـيط بـهم وتمنعـنا عنهم.. وتراجعنا إلى أول سلسلة تلال.. إلى موقعنا بالأمس وقال جون:

ـ نحن فى مـقـام المحاصـر لهم.. لايهـمنا أن نهـجم اليوم أو غداً.

ـ نعم يا جـون.. مـعك حق.. فلنـصـمـد حـتى لا

٨٠

يجدوا مايضربوا به نارهم.

وفى هذه الليلة نام الجميع بعد سهر الليلة الماضية ولم يبق من جنودنا إلا من يتناوبون الحراسة.. ونام جون نوماً عميقاً.. الجميع فى جهد شديد وقبيل الفجر استدعيت حارساً وأمرته بالنفخ فى البوق ليستيقظ الجميع ونستعد للهجوم. وفى لحظات انتفض الجيش وتأهب الجميع للنزول إلى العدو.. وسرنا والفجر مازال يداعب سواد الليل.. ولما أصبحنا على مقربة منهم توقفت وأنا لاأكاد أصدق عينى..حتى إن الجنود جميعاً أبوا أن يصدقوا إلا أن يصرح لهم قائدهم بانها الحقيقة عينها.. لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

أخذت الخيول تسير بنا إلى الشاطئ القريب.. إن أول مايلامسه الماء من اليابسة الآن هو كردون الحطب المتفحم.. أين ذهبت الأرض التى كانوا عليها.. لقد ابتلعهم البحر بالليل.. ولابد أنها كانت مأساة.. وهكذا أمرت الجنود بالسجود لله شكراً على أن نصرهم دون حرب.. وبعد ذلك أخذنا طريق العودة للقرية.. ورغم الانتصار الطبيعى.. إلا أن الجميع أخذوا يفكرون : من أين سيأتون بما يجهزون به السفينة بعدما ضاع كل شئ وغرق.. ونظر الجميع إلى جون الذى من قبل ضمن لهم النجاة.. ووصلنا إلى القرية ورأينا الفجوات المخيفة قد كثرت وأن الشيوخ والنساء والأطفال فى ذعر وهلع.. ودخلت

على الشيخ ضرغام فأقسم أنه لم يرسل لولده.. وأكد أن هناك خائناً كان بيننا.. ولم يكن هناك متسع من الوقت أو الفكر لمناقشة ضرغام.. بل الجميع فى حيرة قاتلة ينتظرون الموت غرقا بين لحظة وأخرى.. مات النجار الذى كان الأمل معقوداً عليه.. وبرغم ذلك إلا أن معظم أهل القرية كانوا يأملون النجاة من عند الله.. ولم يتصور أى عقل فينا كيف سينجينا الله.. واعتقد الناس أن نجاة الله لنا بأن يرسل علينا سفينة من البحر تنقذنا.. وبقدر ماتطلع الناس كل صباح إلى البحر بقدر ماتطلعوا إلى جون الذى وعدهم بنجاة الله لهم من قبل.

ومر يوم عليَّ لاأرى جون وعرفت أنه يقبع فى

مسجد القرية من ليلة أمس يصلى ويدعو ويبتهل إلى الله أن ينجينا.. ورأيت الخوف والهلع أثار أعصاب حفنة من أهل القرية.. فذكرونى بمنافقى المدينة.. لقد أتوا بباب المسجد وأخذوا يقرعون جون ويلومونه على وعده.. مما جعله يبكى ويزيد فى تضرعه.. ولم ألتفت إليهم بل دعوت الشيخ ضرغام فحضر وشاركنا جون الابتهال إلى الله والصلاة.. وحدث أمر عجيب.

فبدلاً من أن نرى شيئاً يزيح عن صدورنا الخوف والفزع .. هبت عاصفة لم أر مثيلها من قبل فجعلت البحر كأنه وحوشاً اسطورية ثارت ثائرتها.

الماء يرتفع كالجبال ويضرب أطراف الجزيرة حتى

شعرنا بالجزيرة كأنها ورقة فى مهب الريح.. وأيقنا أنها النهاية المحتومة.. فلن تتحمل الجزيرة مثل هذه العاصفة.. بل ستتصدع وتتفتت وتصبح نهباً للأسماك الجائعة.. وظلت العاصفة تروعنا طوال الليل وأتى وقت النهار إلا أن الشمس محجوبة بسحب داكنة جعلتنا نعيش فى ظلام دامس.. والهواء الذى تحمله الريح ينذر بالموت وبكى الناس وهم يرتعدون وخرجوا يجأرون إلى الله أن ينجيهم وكاد ضرغام أن يموت كمداً.. واعتبر نفسه سبباً فى كل مايجرى للجزيرة.. وأساء الجميع الظن بجون أنه كان يخدعهم.. لأن الله أراد لهم النهاية كما يظنون..



وبعد الظهر.. توقف كل شئ وسكنت العاصفة وانقشعت السحب عن شمس حمراء حامية.. وعاد البحر كالحمل الوديع.. فخرج الناس حثيثاً يقتربون من الشاطئ فرأوا عجباً.. إن كتلاً متلاصقة من الشعاب المرجانية الصلبة تراكمت على الشاطئ.. صعدنا إلى أعلى تل ونظرنا فإذا بالشعاب المرجانية العملاقة تحيط بالجزيرة .. وفكرت فى شئ فأرسلت رجالاً يغوصون تحت الجزيرة. فعادوا بعد ساعة يتهللون من الفرح وقال كبيرهم وهو يلهث:

ـ شعاب مرجانية هاجمت الجزيرة بسبب العاصفة العاتية فتراكمت تحت الجزيرة .. كأنها كومة من الصخور تحمل الجزيرة.

وقال آخر:

ـ لقد غصت لأعمق مايمكنني تحمله.. إن الجزيرة الآن محمولة على قاعدة ثابتة راسخة في أعماق البحر.

نظر جون لأهل القرية وهم في دهشة من أمرهم وقال:

ـ هكذا سيترسب الرمل والقواقع والشعاب الصغيرة والمحاريات في الشعاب ليجعلوا من الجزيرة المجهولة الضائعة.. بقعة ثابتة على خريطة العالم لاتزول إلا أن يشاء الله.

لم أر فرحة في حياتي مثلما رأيت فرحة الناس بالنجاة وبأنهم لن يغادروا وطنهم الذي أحبوه،

ورأيت الشيخ ضرغام يبكى من الفرح وقال :

- يا مؤمن . . يا جون . . إننى لن أتهاون مرة أخرى في شريعة الله التى أنزلها كى نحكم بها . . وسأنفذ قانون الله على نفسى قبل ولدى . . إن الجزيرة كلها تكافئك يا مؤمن أنت وصاحبك . . بسفينة صغيرة وجوهرة عثرنا عليها من قبل . . فمن منكما يأخذ السفينة ولمن تكون الجوهرة؟

قفز جون فرحا وقال :

- مؤمن . . صديقى . . أنت تحب الجواهر وتسعى وراءها . . إذن فان السفينة التى سيصنعوها لنا من نصيبى ... مارأيك يامؤمن؟

ابتسمت وأنا أفكر فى الرحلة البحرية التى



سيرافقنى فيها جون بعد أن قررت السيدة أن تبقى لتربى ابنتها فى الجزيرة الطيبة.. خاصة وأننا لانعرف على وجه التحديد .. إلى أى اتجاه يمكن أن نبحر حتى نعود إلى أقرب مكان يهدينا لبيوتنا..

فقلت له:

- يبدو يا صديقى أن البحر يريد منا خوض أفقه الشاسع بمغامرة جديدة .... هيا فليباركنا الله .

# سلسلة مغامرات عجيبة جداً